رغم كل انعكاسات الرسوم الكاريكاتيرية:

مهرجان «صور من الشرق الأوسط» يجتاز امتحانه العسير في حواضر وريف الدنمارك

منير عبد المجيد*

■ خلافاً لما كان متوقعاً، جرت أعمال مهرجان «صور من الشرق الأوسط» كما خُطّط لها. وكاد المهرجان، الذي يُعدّ أكبر تظاهرة ثقافية في تاريخ الدنمارك، أن يلغى بسبب نشر الرسومات في صحيفة يولاندس بوستن منذ عام، وما تبع ذلك من فورة غضب شعبي واسع ضد الدنمارك والدعوة الى مقاطعة أعماله، والسبب الآخر نتج عن العدوان الوحشي الاسرائيلي على لبنان، وما تلا ذلك من حصار جوي وبحري، جعل مغادرة الفنانين اللبنانيين، بحضورهم الملفت للنظر، أمراً صعباً.

لقطة من فيلم «عمارة يعقوبيان» (القدس العربي)

خلافات تُذكّر بلعنة شرق أوسطية

قبل اسبوعين من انطلاق المهرجان (من 12 آب/اغسطس الى 20 أيلول/سبتمبر) تسرّبت الينا أخبار عن خلافات كبيرة بين العاملين من جهة، والادارة (بما في ذلك مجلس الادارة الذي تترأسه وزيرة ثقافة سابقة)، خاصة بعد طرد موظفين رئيسيين في CKU (مركز الثقافة والتطوير)، الجهة المنظمة لمهرجان «صور من الشرق الأوسط» والمموّل جزئياً من وزارة الخارجية الدنماركية.

الأسباب التفصيلية للخلافات ما زالت مُبهمة حتى هذه اللحظة، فاهتمام العاملين منصب على نجاح المهرجان بالدرجة الأولى، الا أننا نتوقع أن تنحو الخلافات باتجاه درامي فور انتهاء أعماله. وللتذكير أقول ان المهرجان هذا أعدّ له منذ أكثر من سنتين (خلافاً لما ذُكر في الاوساط العربية)، ولا علاقة له بتاتاً بمحاولة دانماركية رسمية لتبييض الوجه بعد نشر رسومات صحيفة يولاندس بوستن. والمهرجان هذا هو تتمة وتكملة لسلسلة من مهرجانات سابقة حملت عناوين مثل: صور من أفريقيا، صور من آسيا، صور من الدنمارك... وهكذا.

الخطة كانت أن يكون مهرجان هذا العام الأكبر والأهم. ولا بد من الاعتراف أنه حمل في أجندته الكثير من النوايا الطيبة، خاصة بعد تفجيرات نيويورك، وربط العالم العربي والاسلام بالارهاب، كما شاءت أمريكا. والهدف كان جلياً منذ اللحظة الأولى: الصورة الحقيقية للشرق الأوسط مغايرة... هناك حضارة عريقة مديدة، وثقافة معاصرة تتطور وتتأثر بما حولها، كما هو الحال في كل أنحاء العالم. فلمَ لا ندعو 400 ـ 500 فنان، كاتب، سينمائي ومسرحي الى الدنمارك، في محاولة لعكس صور الشرق الأوسط الستيريوية السائدة في هذه الأصقاع. وكنّا قد دعونا بحماس، على صفحات القدس العربي، الى مشاركة عربية عريضة، بعد ظهور أصوات صاخبة دعت الى مقاطعة المهرجان أسوة بمقاطعة البضائع الدنماركية، وذلك كي نُري الدنماركي العادي حضارتنا وفنوننا وثقافتنا، ونُثبت له غباء صحيفة يولاندس بوستن باقدامها على نشر تلك الرسومات.

من اتخذ القرار؟

آلية توجيه الدعوات (الى أكثر من 400 شخص) غير مفهومة. فمن الذي اختار الأسماء المدعوة، وأية جهة في الدنمارك تعرف ما يكفي لتهيئة قائمة الأدباء المدعوين على سبيل المثال؟. كيف يمكن تكليف مستشرقين دنماركيين بوضع قائمة الأسماء المدعوّة؟. لا أحاول هنا انتقاص أهمية الأسماء التي دُعيت، لكن كيف، وبحق السماء، تمّ نسيان كبار آخرين على حساب آخرين لم يسمع الكثير عنهم؟. الحجة كانت أن هؤلاء كتاب شبان يُنتظر منهم الكثير، والدعوات لا يفترض أن تكون محصورة على الأسماء اللامعة.

كيف تتم، على سبيل المثال وليس الحصر، دعوة الروائية التركية أصلي أردوغان (تُرجمت الى لغتين أجنبيتين فقط)، ولم يُدعَ أورهان باموك، الذي تُرجمت أعماله الى معظم اللغات الحية في العالم؟

هذا لا يُقتصر على الأدب وحده، بل تظهر على نحو أوضح في اختيار الموسيقيين والعروض المسرحية. هنا قامت شركة علاقات عامة بوضع البرنامج. ليس لديهم، ولو شخص واحد، تعود أصوله الى الشرق الأوسط.

الدنمارك تزخر بمثقفين من الشرق الأوسط، شاءت ظروفهم المستحيلة هناك اللجوء الى هذه الديار. أليس من الطبيعي أن يُربط هؤلاء، بشكل أو آخر، بالمهرجان وبرنامجه للاستفادة من خبراتهم، كي يتم كل شيء بمهنية، وليس كما جرى معي منذ خمس سنوات (صور من آسيا)؟ وليسمح لي القارئ الكريم هنا بالتنويه الى واقعتين جرتا معي، في محاولة لاضافة شرح للصورة التي أود رسمها. حينذاك طلبت مني ادارة المهرجان دعوة 3 مفكرين من سورية، كونها بلدي الأول ولي امكانية الاتصال وترتيب دعوتهم، شريطة اتقانهم اللغة الانكليزية... هكذا. وقع اختياري على الشاعر ممدوح عدوان (الذي وافته المنية العام الماضي)، والمفكر صادق جلال العظم، وكلاهما منعتهم الظروف من الحضور، وأخيراً الباحث والناقد صبحي حديدي، والذي وبالرغم من مشاغله الكثيرة، لبّى الدعوة وحاضر في موضوعة هامة جداً (تأثير قناة الجزيرة على دمقرطة البلاد العربية). وفي تلك الأمسية لم يتعد الجمهور أصابع اليد الواحدة بكثير. لماذا؟، لأنه وبكل بساطة، نسيت ادارة المهرجان ادراج المحاضرة في برنامجها العام، ولم يدر أحد بموعدها.

هذا العام طُلب مني أيضاً الدعوة الى حلقة بحث عربية ـ دنماركية مشتركة لتبادل الحوار والأفكار، تُعقد على هامش أعمال مهرجان الشرق الأوسط وقبل بدء أعماله بشهرين. طبعاً ذكرت لهم ما جرى من سوء ترتيب في المهرجان الفائت، فأكدوا لي أن الادارة الحالية استفادت كثيراً من كل الأخطاء التي ارتكبت في المرات الماضية.

العروض السينمائية وحدها كانت العلامة الفارقة

وهذا يعود الى جهد كيم فوس، الناقد السينمائي والمدير الأسبق لبرنامج مهرجان أفلام الليل السينمائي. فالرجل اكتسب وعلى مر السنين خبرة يُحسد عليها عن سينما الشرق الأوسط، قام كيم فوس بوضع برنامج هام للعروض السينمائية شمل 28 فيلماً، بدأ بشريط الفيلم المصري «عمارة يعقوبيان» (انتاج 2006) واخراج مروان حامد، عن قصة علاء الاسواني.

والفيلم الذي يحظى الآن بنجاح ملحوظ في بعض الصالات الأوروبية، يُعد من أكثر الأفلام تكلفة.. وجودة أيضاً. اشارة مضيئة لسينما عانت على الدوام من ملايين الأمراض. سمعت من بعض الزملاء النقاد أخذهم على تخصيص كل هذه الأموال لانتاج الفيلم بتقليد أعمى لتركيبة وآلية انتاج الأفلام في هوليوود. وأنا أقول لم لا؟. ان كانت مشكلة التمويل هي العائق الوحيد لتقديم سينما متقدمة وعصرية، فلا مانع لدي من دخول رؤوس الأموال الى صناعة السينما، شريطة أن لا يكون الربح هو الهوس الوحيد لهؤلاء المستثمرين.

هذه نتيجة كبيرة للسينما المصرية، في وقت كنت اخشى من احتضارها. أرجو وآمل أن تستمر. «عمارة يعقوبيان» أفضل فيلم مصري منذ قرن بالكامل.

على عكس ميزانية الفيلم المصري، قام الأخوان المغربيان سويل وعماد نوري بتقديم باكورة عملهما، بكاميرا محمولة على الكتف، يحمل اسم «أبواب الجنة». فيلم تجريبي ملفت للنظر، لم تتجاوز كلفته 120 ألف دولار.

فيلم الجزائري مرزاق علواش (باب واد الحومة) من انتاج 1993 لم يفقد آنيته، لأنه يتعرض لمشكلة تفشي الأصولية الدينية.

فيلم اللبنانية جوسلين صعب (انتاج مصري 2006) يحاول بحث وعرض مشاكل مستعصية مثل ممارسة ختان الفتيات وتحرر المرأة العربية. لكن، ومع الأسف، لم تستطع جوسلين صعب المسك بزمام حدوتتها، فجاء الفيلم باهتاً، ساذجاً أنقذته، في بعض المرات، عذوبة أداء حنان ترك في الدور الرئيسي ومحور القصة.

فيلم السوري محمد ملص «باب المقام» (انتاج 2005) لم يكن أكثر حظاً. «باب المقام» تجري أحداثه، عن قصة واقعية، في مدينة حلب، عن امرأة جريمتها تنحصر في حبها للغناء والطرب وأم كلثوم، مما يدفع ببعض أفراد عائلتها الى قتلها. فيلم داهمته روح الخطابية وركاكة أداء الممثلين. اشارة تجعلني أشعر بالقلق على وضع السينما السورية، على اعتبار أن محمد ملص هو واحد من أهم مخرجيها. «انتظار»، هو عنوان الفيلم الفلسطيني للمخرج رشيد مشهراوي (انتاج 2005). القصة مبتكرة جداً، ومعشراوي يطرح السؤالين التاليين: لماذا لا يوجد مسرح وطني لدولتنا؟، لماذا لا توجد دولة لمسرحنا الوطني؟. هذا الفيلم لقي قبولاً جيداً في كل مكان بعد عرضه في مهرجان البندقية العام الماضي. القصة عن مخرج مسرحي يجوب، سوية مع مذيعة ومصور، مخيمات الأردن، سورية، ولبنان بحثاً عن ممثلين لمشروع المسرح الوطني في غزة والمموّل من الاتحاد الأوروبي.

موسيقى وقليل من المسرح

اختار المهرجان صورة المغنية ناتاشا أطلس للملصقات والأغلفة. وناتاشا التي وُلدت في بلجيكا، تنحدر عائلتها من انكلترا، مصر، فلسطين والمغرب، جاءت الى المهرجان وجذبت الى حفلها حوالي 1500 شخص (رقم المهرجان القياسي). فرقتها خليط من كل مكان وأغانيها المأخوذة من كبار المغنين العرب، صبغتها بالحداثة فناسبت الذوق الأوروبي الى أبعد الحدود. لا فكرة لدي عن مدى شعبيتها في السوق العربية، لكنني أعجب من اصرارها على الغناء باللغة العربية التي من الواضح أنها لا تجيدها. هي بالنسبة لي كمذاق الطعام في مطعم عربي في أوروبا: شكله عربي، لكن طعمه تغيّر ليناسب الأوروبيين.

شربل روحانا سحرنا بمزجه الآلات الموسيقية العربية التقليدية مع الآلات الموسيقية الكهربائية الغربية، مع الحفاظ على روح ونكهة الموسيقى العربية.

التونسي أنور ابراهيم اسم عالمي معروف الآن. عازف عود من طراز رفيع، سبق أن تعاون مع ديف هولاند وموسيقيين عالمين كبار.

فاطمة زيدان قدمت حفلين جميلين وأصيلين مستمدين من التقاليد الموسيقية الخليجية، وبصحبة اوركسترا الراديو الدنماركي.

شفان برور بلغ الخمسين من عمره، دون أن يفقد صوته القوة والعذوبة. شفان لم يعد ماركسيا ـ لينينياً كما كان في سبعينات القرن الماضي، ولم يطالب مستمعيه باللجوء الى الكفاح المسلح من أجل كردستان مستقلة، لكنه دفع بهم الى القفز من مقاعدهم وعقد سلسلة رقص ودبكة كردية. حتى موسيقى الراب، المستمدة من موسيقى العصابات الأمريكية السوداء، كان لها حضور. أذكر فريق «دام» الفلسطيني بنصوصه السياسية الأثيرة، وقوة حضوره المسرحي.

أسماء اخرى كثيرة أقل أهمية كانت حاضرة، وهنا نُعيد انتقادنا عن كيفية الاختيار والغربلة غير المفهومة التي تعرض لها الموسيقيون من الشرق الأوسط.

فرق بريفورمانس ورقص عديدة لم تجذب الكثير من المشاهدين. من لبنان جاء مسرح العرائس اللبناني، وقدم المسرح الوطني الفلسطيني جدارية محمود درويش في قالب مسرحي، بينما أبدعت الفرقة الأكروباتية المغربية من طنجة.

أنطولوجيا ـ مشكلة

في كتاب من 152 صفحة، ويحمل اسم «الجسر، صور أدبية من الشرق الأوسط»، تُرجمت أعمال أدبية للمشاركين في المهرجان الى الدنماركية. قام باعداد الكتاب كلاوس بيدرسن. ومن الأسماء أذكر مريد برغوتي، الياس خوري، نبيل سليمان، علاء الأسواني، صنع الله ابراهيم، بالاضافة الى أدباء من تركيا وايران.

لحظة من فضلكم! أنطولوجيا أدبية من الشرق الأوسط دون أن يشارك فيها أدباء من اسرائيل؟ هذه جريمة لا تغتفر!.

هكذا كانت ردّة فعل بعض وسائط الاعلام الدنماركية التي، وكما يبدو، حركّتها أقوال وتعليقات السفارة الاسرائيلية.

أما ردّ ادارة المهرجان فكان على النحو التالي: حاولنا ايجاد ممولين لمشروع الأنطولوجيا في كل مكان، الى أن حالفنا الحظ، فصدرت بأموال سعودية (مؤسسة المملكة).

مهرجان «صور من الشرق الأوسط» يصد إنهاء فعالياته في العاصمة والمدن الدنماركية الاخرى. وبالرغم من عدم حضور بعض الضيوف المدعوين، بعذر أو دونه، وغياب الأسماء الأدبية الهامة (صنع الله ابراهيم، علاء الأسواني، الياس خوري....)، واهتمام لم ينسجم وحجم المهرجان الكبير من وسائط الاعلام الدنماركية... ورغم أخطاء وهفوات هنا وهناك، فان المهرجان، ببرنامجه الواسع جداً، وحضور عدد غفير من المدعوين، وحلقات بحثه ومعارضه التي يصعب حصرها، بلغ هدفه الرئيسي، وزوّد الدنماركيين بما كنا نريد لهم أن يتزودوا به: الجانب العصري والحضاري (أيضا) من الشرق الأوسط.

* ناقد سوري مقيم في الدنمارك

ملصق المهرجان

تداعيات

السياسة.. الحرب... الدولة، والأخلاق

سميح الصفدي*

■ من السهل القول ان «لا أخلاق في الحروب» ..... «لا أخلاق في السياسة»، ومن السهل القول ان «القوة.. وموازين القوى هي العامل الحاسم في الصراعات والحروب»، وبالتالي فالقوة العسكرية هي العامل الأهم لبقاء الدولة.

هذا الكلام يعززه ظاهرياً الظلم الذي نستشعره كمقهورين في الأرض... كمظلومين من القوى الكبرى في العالم... من الولايات المتحدة واسرائيل... وأوروبا ومجلس أمنهم وسياساتهم الظالمة.. وكيلهم بمكيالين.

لكن...

ما هي النتيجة المنطقية لمثل هذا الحكم؟

أليست هي بالضرورة عسكرة الدولة؟؟ وهل يتوافق هذا الحكم مع الدعوة الى العقلانية والانفتاح والديموقراطية والتعدد؟؟

هذه الأسئلة لا بد تقودنا الى مراجعة مفهوم الدولة، ومفهوم الدولة هو عنوان لكتاب المفكر الكبير «عبد الله العروي» والصادر عن المركز الثقافي العربي ـ بيروت عام 1993 والذي نقتبس منه الآتي:

«يتفق كل المفكرين السياسيين، الواقعيين والمثاليين، على المعادلة التالية: الدولة الحق اجتماع وأخلاق، قوة واقناع، يتفقون جميعاً على القواعد التالية:

ـ لا نظرية حقيقية بدون تفكير جدي في أخلاقية الدولة.

ـ اذا لم تجسد الدولة الأخلاق بقيت ضعيفة.

ـ تحرير الدولة من الأخلاق حكم عليها بالانقراض.

هذا الجانب الأدبي لا يمكن أن تستغني عنه الدولة.....».

ويضيف العروي:

«يستعمل الباحثون اليوم كلمة أدلوجة (أيديولوجيا) لنفس الغرض، يمكن القول انه لا دولة حقيقية بدون أدلوجة دولوية. لا نعني الدعاية الفجة التي تردد في كل حين منجزات النظام، الحقيقية والمزعومة، هذه مفروضة من فوق في حين أن الأدلوجة هي ما يستوعبه المواطن ويترجمه بعد حين الى ولاء فيعطي بذلك ركيزة معنوية قوية للدولة، الأدلوجة هي الوجه الأدبي للجهاز، تستطيع وسائل الاعلام أن تبلور الأدلوجة، لكن لا يمكن أن تخلقها من لا شيء. لكي تتكون أدلوجة دولوية لا بد من وجود قدر معين من الاجماع العاطفي، الوجداني، الفكري بين المواطنين. وهذا الاجماع هو وليد التاريخ، وفي نفس الوقت تعبير عن مصلحة حالية.

هنا نلمح مجالاً أوسع من الدولة، حيث أن العنصرين المذكورين: التاريخي الموروث والاقتصادي الحالي، يكونان أساس كل مجتمع مهما كان مداره وحجمه، بيد أن النقطة التي تهمنا هي أن الأدلوجة الدولوية عقيدة وجدانية وليست شعاراً فقط، انها الوجه المعنوي، ان لم نقل الوجه الحقيقي للدولة». (نهاية الاقتباس)، كلما احتاجت الدولة في ضبط أمنها داخلياً الى القمع والارهاب ـ وبعكس ما يشاع عن قوتها وجبروتها ـ كلما أثبتت أنها ضعيفة أكثر.. انها بحاجة الى القوة والقمع لتقيم الولاء والطاعة..

الدولة التي لا تمارس القمع (ونموذجها الحالي الدولة الديمقراطية) تدلل على قوتها بقمع أقل وحرية أكثر.. انها تحصل على الولاء بفضل الأدلوجة الأخلاقية والانتماء الوجداني. وبالتالي فانها تحصل على الصدقية داخلياً وخارجياً.

الحرب السادسة كنموذج:

ما معنى الحرب الاعلامية التي واكبت المعارك بين طرفي الحرب؟؟ أليست سعياً من كل طرف نحو انتزاع الشرعية الأخلاقية.. واسقاطها عن الآخر؟؟

لماذا ينبري أولمرت وبيريز لالقاء الخطب والبكائيات؟ لماذا يجول المبعوثون في دول العالم لحشد التأييد؟ أليس من أجل كسب المعركة الاعلامية؟ أليست المعركة الاعلامية صراعاً من أجل كسب الحق والأخلاق؟

لماذا لم يفارق الناطقون والناطقات الجميلات باسم خارجية اسرائيل شاشات التلفزة؟

لماذا بكى السنيورة؟ ولماذا خاطب نصر الله العرب والاسلام والعالم هذا الخطاب المدروس والمتزن... والمتواصل؟ هل كان سيكتفي بالكاتيوشا؟

لماذا دخل الفنانون المعركة؟ وساهموا وغنوا وبكوا.. وقدموا العون للمنكوبين.... وقالوا هذه أرضنا... وهؤلاء نحن..؟

لا معنى لكل هذا اذا كان المدفع فقط هو الحاسم....

يمكن تصحيح المعادلة بالقول ان «موازين القوى» هي العامل الحاسم... لكن ميزان القوى عامل مركب.. كبير ومتنوع.. ويدخل فيه الى جانب العسكر: الأخلاق والفن والكلمة والسياسة والوجدان والانتماء والعاطفة... والأيديولوجيا...

حتى الآن..، ورغم النصر النسبي الذي تحقق، (بفعل مجموع ميزان القوى لا بفعل الكاتيوشا وحدها)، حتى الآن يمكن القول ان اسرائيل وأدلوجتها الأخلاقية ما زالت منتصرة. وكلامنا هذا لا يعني بالطبع أن اولمرت أو بوش أخلاقيان.. انما نعني أنهما لا يستطيعان الاستغناء عن الأخلاق.. حتى ولو بالتضليل.

حين يؤيد 70% من الأمريكان اسرائيل لا يمكننا أن نصدق أو نعتقد بأنهم أشرار!! بل علينا أن نصدق بأن اسرائيل استطاعت اقناعهم أولاً بصدقيتها كدولة ديموقراطية، وثانياً بعدالة قضيتها.. وبأنها تخوض حرباً من أجل الأخلاق والانسانية.. ضد «الارهاب والظلامية».

وهنا بالطبع حري بنا أن نعمل لدمقرطة دولنا ومجتمعاتنا ولخلق أدلوجتنا الدولوية ونشر وتعزيز أدلوجتنا الأخلاقية وبسطها لاثبات عدالة قضيتنا... وألا ننسى أن لبنان لولا ديمقراطيته النسبية وعقلانية القوى السياسية فيه ومن ضمنها حزب الله لما استطاع أن ينجز شيئاً.

أما أن نستسلم لبساطة التحليل العاطفي ونقول: القوة تتكلم فهذه عدمية محضة. لا قوة بدون أخلاق، لا قوة بدون أدلوجة وانتماء ووجدان.

* كاتب سوري في الجولان المحتل

خنجر أكادير

حكمت الحاج*

يجب ان اتذكر الآن وبعد
كل تلك السنين خنجر اكادير
المرصع بالفضة حتى الغمد
كم كانت رائحة الموت
منتشرة في المكان تشمها كنت رائحة الموت
تلمسها انت تعضها بين اسنانك رائحة الموت
عندما تطبق فمك على الحقيقة رائحة الموت
تلك أم امرأة تتمشى من حولك تثير
فيك الف رغبة ورغبة؟
دارها البيضاء بيضاء لا غبار عليها
ولا صدى من أيامك الغابرة يسكن
جنباتها بيد الموت دق طبل الرحيل
اطعن من الخلف انها شيمة الغدر
يا عدوي الثقيل انني اردیت عمرا
في انتظار المستحيل آه لقد تعبت
من الدول الصغيرة ذات الثقافات المميزة
ولكن خليلتك ليلا هل تجئ؟ نعم
ولكن خليلتك الآن هل تجئ؟ لا
هنالك في الأعالي
حيث المنزه التاسع تستطيع بكل
فخر ان ترى الهاوية وسعت نفسها
وفغرت فمها ملء الشدقين بلا حد ...
هيه، أنت، أيها الرجل الناجح في
كل شئ حتى انك قد منعت الذئاب
عن الاقتراب من بابك
ألا تسمعها رغم كل شئ
تعوي في الخارج تحت جنح الظلام؟

لندن غرة سبتمبر 2006

* شاعر من العراق